الفصل الرابع

رأس المال

ماهية رأس المال — الذخائر والادوات — منشأ رأس المال وصفة نموّه — مصدراه : وهما الادّخار والاختراع — الفرق بين الادخار الحديث والادخار القديم — الخصائص العامة فى امة يتكون عندها رأس المال وينمو على الدوام — نوعا رأس المال : رأس المال الثابت ، ورأس المال المتداول — موادّ كل من هذين النوعين

مَاهيَّةُ رأسِ المال

رأسُ المال أحَدُ المصادِرِ الثَّلاثة الكبرَى للإنتاج . وصِنْواه الطَّبيعةُ والعملُ

لولا رأسُ المال لَبَقِيَ النَّاسُ أبداً ولا مُقَوّمَ لأَوَدِهم إلاَّ الصَّيْدُ برًّا وبَحراً . والصَّيْدُ بنوعَيْهِ هو العملُ الوَحيدُ الذى يَجنى منهُ الانسانُ محصولاً عاجلاً يُنفقهُ بلا امهال ؛ إلاَّ أنَّ ذلك المحصولَ غيرُ مُحقَّق ولا مُتعادِل . ولهُ حَدٌّ يَنْتهى اليهِ

لما أرادَ الإنسان أن يَستقِلَّ عن الصَّيد ، وأن يُهيِّءَ لنفسهِ مواردَ من سِواه ، اضطرَّ الى مُقْتنياتٍ يَتأثَّلها[١] ، وأدواتٍ يَصْطَنِعُها ، فكانت هذهِ الذَّخائرُ وتلك الأَدواتُ هى النَّوْعان الأصليَّان لرأس المال

كيفَ تكوَّنَ رأس المال وبِمَ تكوَّن ؟

بالتَّبصُّرِ[٢] والاختراع ، وبتطبيقِ العملِ على كلِّ ما هو مُعَدٌّ لِتَسهيل الإنتاج آجلاً ، دونَ ما هو مُعَدٌّ لاستعماله عاجلاً

هنا يَنْساقُ بنا الكلامُ الى الأزْمنةِ المختلفةِ ، التى مرَّت بها الحَضارَةُ ، وكانت فيها تُعيَّن بالأدوات التى غلَبَ استعمالُها ؛ مِنْ ذلك قَوْلهُم :

العصرُ الحَجَرِيُّ ، تَسميةً للحِقْبَةِ التى كانَ الانسانُ فيها هَمَجياً لا يتَّخِذُ من الآلاتِ إلاَّ ما كانَ حَجراً

---

(١) التأثُّلُ الادِّخار (٢) التَبصُّرُ والتَّدَبُّرُ prévoyance هو النظر فى العواقب

ثمَّ العصرُ الحديديُّ ، وهو الذى انتفعَ الانسانُ فيهِ ببأسِ الحديد ولُيُونَتِهِ

ثمَّ العَصرُ الآليُّ وهو هذا العصر الذى أُحدِثَتْ فيهِ الآلات ذواتُ الأجهِزَةِ المرَكَّبةِ : تُحرِّكُها يَدُ الانسان تارةً وَتُدِيرُها قُوَّةُ الحيوانِ أُخرى ؛ ثمَّ يُستخدَمُ لها بعدَ ذلك الهواءُ أو الماءُ ، إلى ان يُستعاضَ عنها فى آخرِ مَرَاقى المدَنيَّة بالبخار والغاز والكهرباء الخ

لم يَكن تَوَلُّدُ تِلكَ الآلاتِ إلاَّ من مُزَاوَجَةٍ بين الاختراع والتَّبصُّر ؛ فلمَّا تَضافَرَ العقلُ والإرادةُ معاً نَهضَا بالانسان من قُعُودِهِ ، وطَمَحَا ببصره الى ما وَراءَ الكفافِ الميسورِ ، وَشَغَلاَهُ بأمرِ مُستقبله ، وَحَملاَهُ على بَذلِ مجهوده ؛ لاَ لِقضاء العاجِلِ من حاجاتهِ ، بل لتمهيدِ ما يُهيِّئُ لهُ قضاءَ الآجلِ منها فى حِينِهِ

منشأ رأس المال

لِنَنْظُرْ بعينِ الفكرِ ، كيفَ نشأَ رأسُ المال فى قبيلةٍ من صَادَةِ السَّمَك

كانَ فيهم واحدٌ، وكانَ أَيْقَظَ من رفاقهِ، فرأى جِذْعَ شجرةٍ طافياً على الماء. رآه وقد علاه جسمٌ آخرُ فلم يَغُصْ فى الماء ولم يَغْرَق: فامتَلَخَ[1] شجرةً وطَفِقَ يُشَذِّبُها[2] ويُقَطِّعُها ويُهَيِّئُها بحيث يَستطيعُ أن يَقْعُدَ فوقها ويُدِيرَها. واذ كانَ لا بدَّ لهُ من التَّفَرُّغِ زمناً لهذا العملِ، اضطرَّ ان يَدَّخر ما يَقتاتُ بهِ مُدَّة ذلك الفَرَاغ وأن يُقَتِّرَ على نفسهِ بعْضَ الشئ فيما يُنْفِقُهُ من ذخيرتهِ، وان يَكْبَحَ[3] من جِماحِ[4] شَهوةِ الطَّعام، مُستعيناً بكل ذلك على ان يَملِكَ الصبرَ الى النِّهاية. فلمَّا أدرَكَ الغايةَ وأصبحَ صاحبَ زَلَّالٍ[5]؛ تعيَّنَ عليهِ أن يَدْفَع بهِ الى البحر، فدفَعَهُ ومَلَكَ بهِ أداةً سَهَّلت عليهِ الصَّيْدَ. تلكَ الأداةُ كانت رأسَ مالٍ، كما أن تلكَ الذَّخيرةَ التى مَلَّكَتْهُ وقتَهُ، وأعانتهُ

---

(١) امتلخَ اقتلعَ (٢) يُشَذِّبُها يُقَلِّمُها (٣) كبحَ جذب أو ردَّ (٤) جمَحَ استعصَى (٥) الزَّلَّال هو الزَّورق الصغير، لغة بغداديَّة ذُكِرت فى كتاب الأغانى فى غير موضع وذُكرت فى غيره من كتب الأدب وان أهملتها المعاجم

على تحقيقِ أُمْنِيَّتِهِ ، كانت رأسَ مال أيضاً

بعدَ تَمالكِ الزَّلَلِ على حدِّ ما وصفناه ، باتَ ذلك المَوَّلُ[1] متُصرِّفاً فى أداةٍ يَستخدِمُها إمَّا ليَسْهُلَ عليهِ الصَّيدُ ويَخِفَّ عنهُ عَناؤُه ، وإمَّا ليستكثِرَ ما يُخرِجُهُ من السَّمك ، فيأخُذُ منهُ جانباً لقُوتِهِ ، ويُقايِضُ بالجانب الزَّائد مَنْ شاءَ مِنْ بنى عَشيرتِهِ

القُدْوَةُ الصالحةُ تُعْدِى كما تُعْدِى القُدْوَةُ السَّيِّئةُ ، ومِصداقُهُ أنَّ أذكى أولئك الهَمَج وأنْشَطَهم ، قد احتذى على مِثال البادِئ ، فابتَنى الزَّوارِق . ولا جرَمَ اذا اطَّرَحَ الكسلَ وادَّخر المِيرَةَ[2] ، ليقِفَ وقتَهُ وهمَّتَهُ على إنجاز مَطلبهِ

مَرَّ على هـذا زمانٌ ، طالَ أو قَصُرَ ، فإذا القبيلةُ فريقان رِجالٌ فَطِنُون مُتبصِّرُون يَملِكُونَ الزَّوارِقَ ، لأنَّ عزيمتَهم صَحَّتْ على ابتنائها ففعلوا ؛ وآخرون أخطأوا الرَّأْيَ فلم يَملِكوا الزَّوارِقَ ، فكانَ حظُّهم مِن الصَّيدِ

---

(١) آثرنا هذه اللفظة لتسمية كل ذى رأس مال

(٢) المِيرة المؤونة والزَّاد

أدنى ، وكانوا بذلك أقلَّ وَفْراً [١]

لمَّا سَهَّلت الزَّوارقُ للنَّاس صيدَ الأسماك ؛ دَعَت الحالةُ الى ما هو أصْلَحُ ؛ فاختُرِعَت الصُّنَّارَة ، ثمَّ السُّكان[٢] ، ثمَّ الشِّراع[٣] ، وتَسنّى لبعض رِجال العَشيرة ، أن يَستخدِموا هذهِ الأدواتِ ، ويَجِدُوا من وقتهم متَّسعاً للرَّاحة ومن رِزقِهم فَضْلاً يَبْتَنُونَ بهِ أكواخاً تَقيهم آفاتِ الجوّ . وعلى هذا المثال وذلك التدريج البطيء ، تَوَصَّلَ حُصَفاءُ[٤] القبيلة وصادِقُو الهمة فيها ، الى التَّفوُّق على عامَّتها وزيادةِ أسباب الفائدة والرَّخاء لأنفسهم . إذ كلُّ رأس مال جديدٍ لا يكون وَسيلةً مَقْصُورَةً على جَلْب النِّعَم الشَّاهدة ؛ بلْ يَزِيدُ العملَ إنتاجاً ، وبهِ يَتمكَّنُ أُولو الأَلْباب من ادّخار شيء من كَسبهم لإنشاء رؤوس أموال أُخَر : أى لإيجاد أدوات جديدةٍ ، وذخائرَ طَرِيفةٍ[٥]

---

(١) الوَفْرُ المال الكثير ويأتى بمعنى الزيادة فيقال وَفْرُ الجاه

(٢) السُّكَّانُ هو ما يسميه العامة بدفة المركب ويسمى أيضاً بالخيزُرانة (٣) الشِراعُ للسفينة أو القِلْعُ (٤) الحُصفاء العُقَلاء (٥) طريفة أى جديدة

مِثْلُ هذا التَّحوُّلِ جازَ حدوثُهُ فى إِحدى القبائل من صَادَةِ البَرّ : ولعلَّهُ سَنَحَ لأَحدها وهو يُطارِدُ البَهْمَ [١] كلَّ يوم ويُقَتِّلُها تَقْتيلاً بلا رحمةٍ طلباً لقُوتِهِ ، أن يَخْتصِرَ من ذلك العناءِ ، فيأسِرَها ويتوخَّى بقاءها ويَتولَّى الهيمنةَ عليها وَيستولِدَها ؛ فيَخفُضَ [٢] بذلك عيشُهُ ويَلينَ لهُ جانبُ الدَّهر؛ على انهُ قد اضطُرَّ قبلَ أنْ يَجتمعَ لهُ القطيعُ منها ، أن يَكِدَّ كدًّا [٣]، وأن يَقتصِرَ من كسبهِ على ما يُمسِكُ بهِ رَمَقَهُ [٤]

أمَّا مَوْلِدُ الزّراعة فكانَ فى عصرٍ بعدَ ذلك العصرِ . والمرءُ يومئذٍ قد خَطا خطوةً الى الترقّى فى التَّخرُّج على التَّجارِب

والزّراعةُ هنا هى استخدامُ العملِ المشروع لاستنباتِ الأَرْض نَباتاً نافِعاً للنَّاس . وقد كانَ مَنْشأُ ذلك ، التَّبصُّرَ والادّخارَ والأَدواتِ المصنوعةَ التى بَدأتْ غيرَ مُتقَنة ثمَّ

---

(١) البَهْمُ جمع بهيمة (٢) خَفُضَ العيش أى لانَ
(٣) كدَّ كدًّا سعى سعياً وتَعِب تَعَباً (٤) يحفظ حياتَهُ

تَدَرَّجت الى الإتقان : من المِعْوَلِ والمِحْراثِ ، إلى أعْجَبِ الآلات الحديثةِ

كيفَ يتكوَّنُ رأسُ المال

النَّوْعان الأَصليَّان اللذان يَتكوَّن منهما رأسُ المال . هما الذَّخائرُ ، والادواتُ . ولإحداثهما يَتحتَّمُ على الإنسان أن يَخْشَوْشِنَ أى ألاَّ يَخْرُجَ عن القَصْدِ[1] فى نَفقاتِهِ وأنْ يَكدّ . وكلُّ رأسِ مال إنما هو من نِتاجِ الكَدِّ والادِّخارِ

لمَّا وُجِدَ رأسُ المال اتَّجَهَ الفكرُ الى أنَّ رِجالاً من الصَّفْوَةِ[2] قد آثروا على المرافِقِ[3] العاجلة ، مَرافقَ آجلةً لا تَتحقَّقُ لحينِها ، ولكنَّها خيرٌ وأبقى ؛ وان ذلك الاستغناءَ عن العاجل بالآجل ، مَبْدَؤُه الاهتمامُ بأمر الغَدِ والرَّغبةُ فى تحسين الحظِّ واستدامةِ الرَّغَدِ[4] وإنْ تحمَّلَ دونها الانسانُ ما يَتحمَّلُهُ من الحِرْمانِ والمَشَقَّة فى يومهِ

---

(١) القصد هو الاعتدال (٢) الصفوةُ النُّخبةُ

(٣) المرافق المنافع (٤) الرَّغَدُ الدَّعَةُ واللين

التَّبصُّرُ فضيلةٌ لا تكون بِنْتَ ساعتِها ، بلْ يَتعوَّدُها الإنسانُ حتى تصيرَ من طِباعهِ . فَمَنْ شَرَعَ فى جَمْعِ رأس مال وعَرَفَ مزاياه ، أَلِفَ الجمعَ استمراراً وحبَّبَهُ الى بنيهِ وأُلاَّفهِ ؛ فتتعَدَّدُ رُؤوسُ الأموال : أى الذَّخائرُ والأَدواتُ ، وتَنمو جيلاً بعدَ جيل . وهذا التَّعَدُّدُ وذلك النُّمُوُّ المتوالى فى رؤوسِ الأموال يَكونان من مُمَيِّزاتِ الأُمَّةِ المُدَنَّنةِ

إذا أُرِيدَ تحليلُ مُشْتَبَكاتِ الوقائع الاجتماعيَّة بعضِها من بعضٍ ، وَضَحَ لكلّ ذى عينين أنهُ لا يُوجَدُ بين ظَهْرَانينا فى هـذا الزَّمان رأسُ مال إلاَّ ومَرْجِعُهُ إلى العصرِ الحَجَرِيّ ؛ فإنَّ فأسَ الصَّوَّان المنحوتِ نحتاً غليظاً ، وسَهمَ أوَّلِ رامٍ ، والشَّبكةَ والزَّوْرَقَ اللذين استعملهما الصَّيَّادُ الأَوَّلُ ، والمِجْرَفَةَ والمِعْوَلَ ، ومِحْراثَ الخشب الذى استخدَمهُ أوَّلُ من زَرَعَ الأَرضَ ، الى أمثالها من الأَدَواتِ هى بعينها تلكَ التى تحوَّلتْ بإتقان تَدْرِيجيّ الى الآلاتِ المرَكَّبة العَجيبة التى نراها اليومَ ، ومنها : المِطْرَقَةُ

العالقةُ [١] والقاطِرَةُ ، والسَّفينةُ ذاتُ الرَّفّاس ، والحَصّادةُ والدرّاسةُ [٢] البخاريّتان

قِيلَ فى أحوالٍ متُعدّدَة ، إنّ رأسَ المـال ، هو العملُ المُتَراكِمُ المجتمِعُ . وهذا تعريفٌ قريبٌ من الصّحّةِ ، لكنّهُ غيرُ تامّ : وصوابه أنْ تُضافَ اليـهِ ألفاظٌ أُخَرُ فيُقال : هو العملُ المتراكِمُ على ذِمّةِ الإنتاج الآجلِ

إنتاج رأس المال

أنكرَ بعضُ المتزمّتين [٣] على رأس المال أنهُ مُنتِجٌ . ولا ريبَ أنهُ إذا أُريدَ انتاجهُ فهو فى حاجةٍ الى يَدِ الإنسان أى الى العمل . لكن هل يُنكَرُ على المِحراث أنهُ مُنتِجٌ ، لأجل أن الرَّجُلَ الذى يَستخدمهُ ، يَعمَلُ عشرةَ أضعافِ العمل الذى يَتَسنى لمن لا محراثَ لهُ ؟ ومثل هذا

---

(١) مِطْرَقة ضخمة للحديد تُحرّك بالبخار او بالهواء المضغوط او بالماء (٢) الحصّادة آلة للحصد ؛ والدرّاسة آلةٌ للدراسة (٣) المتزمّتون المتشدّدون الذين لا يترخّصونَ فى شىء

يُقال فى استخدام عَجَلَةِ اليدِ، والزَّوْرَقِ، والمِطْرَزَةِ[١]، وسائرِ الأَدوات

فى الطَّبيعـةِ كثيرٌ من الأشياءِ لا يُنتجُ بانفراده، وأوَّلها الحيوانُ من جهةِ المناسَلَة[٢]. كذلك رأسُ المال لا تَتولَّدُ فوائدهُ للنَّوْعِ البَشريّ إلاَّ بمزاوجتـهِ للعملِ الوقتيّ؛ ولكنَّ مِن الغُرورِ القولَ بأنّ العملَ الوقتيَّ يُنتجُ بذاته كلَّ ما يُنْتِجهُ بذخائره وبأدواتهِ، وإنكارَ ما لرأس المال من الفضْلِ العَظيم فى الإنتاجِ على عمومهِ وفى زِيادتهِ المطَّرِدَة

رأسُ المال إنما يُمَثِّلُ تَضامُنَ المـاضى، والحاضرِ، والمستقبَلِ: وهو يَمُدُّ بجذورهِ الى أبْعد زمانٍ خَلاَ ويُدْلى[٣] بفروعهِ الى أقْصَى غاياتِ الآتى

كيفَ تكوَّن رأس المال فى المُجتَمعات الحاضرة

رأَينا كيفَ تَكوَّنتْ رؤوسُ المال فى مُجتَمعاتِ

---

(١) آلة الخياطة (٢) المناسَلَةُ التَّناسُلُ (٣) أدلى بمعنى أرسَلَ

المتقدِّمين ؛ على أنَّ هذا التكوينَ لم يَتغيَّر فى المجتمعاتِ الحَضَرِيَّة الأخيرةِ . فإن خَفِيَت معالِمُهُ لأوَّل وَهلةٍ فذلك لِتكاثُرِ الحوادِث وتَشابُكِها ؛ غير ان مجرَّدَ الادِّخار الآن أصبحَ ضرباً من رأس المال بفَضْلِ تقسيمِ الأعمال

الادِّخار على نوعين : إمَّا الاكتناز ، وهو ان يَدفِنَ الانسانُ نُقوداً — ذَهَبيَّةً كانت أو فِضِّيَّةً — فلا يَنتفعُ بها المجتمعُ ؛ وإمَّا إحداثُ أدواتٍ للعمل أو إنتاجُ أرزاقٍ ثابتةٍ كالآلات الصِّناعية أو المبانى الخ ، أو إقراضُ النُّقُودِ للشَّركات أو للحكومة فتَستخدمُها فى سبيلِ الإنتاجِ

فتكوينُ رأس المال فى المجتمعاتِ الحاضرة انما يَتمُّ بألاَّ يُنْفِقَ الانسانُ كلَّ دَخْلِهِ ، وبأن يَستخدِمَ ما يُجَنِّبُهُ (١) من المال فى أُمور تَعُودُ عليهِ بالنَّفعِ العَميم ، وليسَ هذا بالميسور ، فهو لا بدَّ لهُ من نَشاطٍ وَسَعَةِ إدراكٍ

كلُّ مُدَّخَرٍ وُفِّرَ عن فِطنَةٍ فهو رأسُ مال

مَنْ تَتبَّعَ الأحوالَ فقابَلَ بين سَيْرِها الآن وما كان

---

(١) التَّجنيب إحرازُ الشىء ووَضعهُ فى جانب

يَجِبُ أن يكون عليهِ ذلك السَّيْرُ، وَجدَ أَنَّ كلَّ مَن ادَّخرَ ، خلَقَ وهو لا يَشْعُرُ ، مِيرَةً وأدوات للعملِ تأخذ بيدِ الإنسانيَّة الى أعلى مَراقيها. ذلك لأنَّ مَنْ استعاضَ التَّجمُّلَ بفاخر الثّياب واللَّهوَ بباهرِ الزّينات واستِمْراءَ[1] الشَّهيّ من المآكلِ وجميعَ تلكَ الأَعْراض الزَّائلة، باقتناءِ سَنَدٍ على المَصْرفِ العقَاريِّ أو صَكٍّ على الحكومة ، فقد مَكَّنَ الشركاتِ أو الحكوماتِ مِن القِيامِ بأعمالٍ عامَّة : كإقامة المبَانى ، وتخطيط التُّرَعِ ، ومَدِّ المجارير ، وتحسينِ كلِّ ما يُفيدُ تحسينُهُ ؛ إلى غير ذلك من الأَعمالِ الدَّائمةِ النَّفعِ التى هى رؤوسُ أموال

فإذا أخطأَ المُدَّخِرُ الموْضعَ الذى يأمَنُ فيهِ على مالهِ وينتفعُ بهِ ، فرأسُ ماله ضائعٌ عليهِ وعلى المجتمعِ معاً ، ومَذْخُورُه يكون أشبهَ بالجنينِ وُلِدَ ميّتاً

الوَفْرُ[2] إذا حَسُنَ استخدامه ، وُجِّهَ توْجيهَ نَفع وبَصيرةٍ لإعانة العمل الانسانيّ ؛ فكلّ مجتمَع كَثُرَ فيهِ الوَفْرُ

---

(١) الاستمراء التلذُّذ (٢) الوفر المال

كَثُرَ فيهِ الإنتاجُ ، وربَّما قَلَّ صُنْعُ المُخَرَّم[٢] وازدادَ طبعُ الحديدِ ، واستخراجُ الفحم . فما نَقَصَ ، فَمِنَ النَّفائِسِ ، وما زَادَ ، فَمِنَ الآلاتِ المُنْتِجة

ولمَّا كانَ رأسُ المال على توالى الزَّمَن ، قد ضاعَفَ القُوَى المُنْتِجةَ فى الانسانيَّةِ ؛ كانت الأُمَمُ التى تَدَّخرُ وتُنْمِى ذَخائرَها أخْفَضَ عَيْشاً[٣] من الأُمَم التى لا تَنْهَجُ ذلك النَّهْجَ

كذلك شأنُ الأَفْراد فى خاصَّةِ معايشهم ، ومثالهُ : رَجُلاَن كلاهما دَخْلُهُ عشرةُ آلاف فرنك يُنْفِقُ أحدُهما جميعَ دَخلِهِ ويَدَّخرُ الآخرُ نِصفَهُ فلا يَعيش بِسَعَةٍ كعيش صاحبه ؛ لكنَّكَ إذا نَظَرْتَ اليهما بعْدَ عشرينَ عاماً رأيتَ أن المُدَّخِرَ قد تَضاعَفَتْ ثَرْوَتُهُ كما تَضاعَفَ دخلُهُ ، وأن صاحبَهُ الذى لم يَدَّخِرْ لم يزَل باقياً على حالهِ

---

(١) المخرَّم دانتلاّ (٣) اخفضُ عيشاً اى ألْيَنُ عيشاً

الفصل الخامس

نَوْعا رأسِ المال

رأس المال الثابت — رأس المال المتداول

رأس المال الثابتُ ورأس المال المتداوَلُ

عَلِمْنا ان رأسَ المال قد كانَ فى مَبْدَإِهِ على نَوْعين : الذَّخائِر، والأَدواتِ . فلمَّا انتَشَرَت المدنيَّةُ تَفَرَّعَت عن هذين النَّوْعين فُرُوعٌ مَشَتْ مُدَارَجَةً[1] مع المدنيَّة . ثمَّ استُعِيضَ عن كَلِمَتَيْ « ذخائرَ » و « أدواتٍ » بقولهم « رأسُ المال المتداوَلُ، ورأس المال الثَّابتُ »

أمَّا رأس المال المتداوَلُ ويُعْرَفُ أيضاً بابن مرَّتِهِ، فهو الذى لا يُستخْدَمُ إلاَّ مَرَّةً واحدة فى الإنتاج ؛ ومن هذا القبيلِ الذَّخائرُ بأنواعِها ، وأخصُّها الموادُّ الأولى ؛ فإنها إذا تحوَّلت الى المُنتَجِ المطلوب أصبحَتْ هِىَ إِيَّاه ولم

---

(١) مُدارَجة أى تدريجاً

يَبْقَ من ذَواتِها شيءٌ : كالصُّوفِ ، والزَّيْت ، والفحم ، الذى يُحرَق لتحريك آلةٍ : كلُّ هـذهِ الأشياء تحُولُ [١] إلى طاقٍ من الجُوخ هو نتيجةُ استخدامِها

فلا بدَّ إذاً لرأس المال المتداوَل مِن أنْ يَعُودَ كلُّهُ ومعهُ ربحٌ ناتجٌ : أى أن ثمنَ الطاقِ من الجوخ يَجبُ أن يُعادِلَ ثمنَ الصُّوف والزَّيْت والفحم وسائرِ ما استُعْمِل لإنتاجه ، مُضافاً اليهِ أجرُ الصَّانع وَرَبْعُ المال وكَسْبُ المُستَحْدِث [٢]

قدْ تَبيَّنَ مما سبق أنَّ رأسَ المال المتداوَلَ تُزاد بهِ الذَّخائرُ ؛ أمَّا رأس المال الثَّابت فتُزادُ بهِ الأشياءُ التى لا تَبيدُ فى كلِّ إنتاج : وتلكَ الأشياءُ هى الأدوات ، وأجْهِزَةُ المصانع والمزارع ، والجُنَّةُ [٣] التى تَقى الإنسانَ أعْراضَ الجوّ وتُمكّنهُ من العملِ فى كلّ وقت . وتَدْخُلُ فى هذا الباب التُّرَعُ ، والخطوط الحديديَّةُ ، وضُرُوبُ الإصلاحات والتَّحْسينات الثَّابتةِ

---

(١) حالَ بمعنى تحوَّل (٢) صاحب المشرُوع ومُدِيره — Entrepreneur (٣) كلّ ما يُؤوَى اليهِ ويُستجنّ بهِ

رأس المال الثابتُ لا يتحوَّلُ إلى ما يُنتِجهُ، وانما يُفرَد لهُ فى كلّ عام مِقدَارٌ مِن ثمنِ المنتَجاتِ يُمكِّن من حفظهِ واستمرارِ نفعهِ، أو من استبدالهِ حين يُخشَى عليهِ التَّلفُ: والقَدْرُ السَّنويُّ الذى يُستَنزَلُ من أرباح المنتَجات لهذا الغرَض — والذى يَجب ادخاله فى حسابِ كلّ عَمَلٍ جَليل — يُدعى الاستهلاكَ

مَظاهر رأس المال فى المجتَمعاتِ الحاضرة

لمَّا كانتْ ضُرُوبُ التَّحسين والتَّكميلِ التى يُدخلها الانسانُ على الأَشياءِ كثيرةَ التَّنوُّعِ والتَّشتُّتِ، كانت لرأسِ المالِ مظاهرُ بهذا التنوُّعِ والتشتُّتِ عند كلّ أُمَّةٍ راقية. وأهمُّ ما يَجْدُر من ذلك بالذّكر هو المظاهر التّالية:

١ً — المحسّنات الثّابتةُ للزّراعة: من مِثْلِ التَّسبيخ والتَّجفيفِ والرّيِّ وغرْسِ الأَشجار ووضعِ الأَسمِدَةِ المتجدّدة الخ

٢ً — المبانى بأنواعها

٣ً — الأَدواتُ والآلاتُ بِصنُوفها

٤ً — المواشي

٥ً — الموادُّ الأُولى ممَّا تَستغرِقُهُ الصِّناعة كالقُطن والصُّوف والزَّيت والفحم

٦ً — الميرَةُ التي يُعالُ بها الخَدَمةُ المنتِجون إلى أن يَتِمَّ الإِنتاج

٧ً — النُّقودُ

٨ً — بعضُ المزايا، وبعضُ المرافق المعنويَّةِ

هذا التَّعْدَادُ ليسَ بالجامِع ولا المانِع بل إِنهُ لَيَحتَمِلُ المَزِيدَ. وبعض ما ذُكِرَ في البيانِ الآنف يَستَدْعي شيئاً من الشَّرْح

يَتساءَلُ بعضُ النَّاس عمَّا إِذا كانت النُّقودُ رأسَ مالٍ؛ ويَقول آخَرُون إِنهُ ان كانَ لرأسِ المال مَعنًى فهي معناهُ. سنَعودُ بعدَ قليلٍ إِلى مسأَلةِ النُّقود ومنها سَيَتبيَّن المطالِعُ أنَّ الذَّهب والفِضَّة هما رِزْقٌ، ولكنَّهما لم يَكونا كلَّ الرِّزْقِ، ولا صاحِبَيْ المَقامِ الاوَّلِ فيهِ؛ وليسَ أغنى

الشُّعوبِ مَنِ اُقتنى القَناطيرَ المُقَنطَرَةَ مِنَ الذَّهب : هذا الشَّعْبُ البريطانيّ نراهُ أوْسعَ الأمم ثَرْوةً على أنَّ ما يَملِكُ من ذلك المعْدِن الكريم، يَقِلُّ عمَّا تَملِكه منهُ سائرُ الامَمِ المتحضِّرة الكبيرةِ

وهذهِ الولاياتُ المتَّحدةُ التى تجىء فى منازِلِ اليَسار بعد انجلترا، لا تَملِك من النُّضارِ ما يُناسب جاهَها العريضَ

فالنُّقودُ — ذَهَبًا كانت أو فِضَّة — هى رأسُ مالٍ لا محالةَ . إلاَّ انهـا فى حقيقتها لم تكن غيرَ أداةٍ من الأَدوات . وهى أيضاً ذَريعةٌ للمُقايضات ؛ وليست مرغوباً فيها لذاتها بل لكونها وسيلةَ تَملُّكٍ. وطالما شُبِّهَتْ بالسبُل الكبرَى أو بطُرُق النَّقْل : من حيث إنها لم تُخلَقْ إلاَّ لِتَبادُل المنتَجات . ثمَّ إنهـا من الأَسبابِ التى تُعينُ على الإنتاج بتَسْهيلها المقايضاتِ وَوِقايتها النَّاسَ من إضاعةِ الوقت وإطالةِ الحساب وضَرُورةِ السَّفَر

كلُّ هذهِ الفوائدِ تُعيِّنُ لها صفةَ رأسِ المال ، وان لم تكن فى بلَدٍ إلاَّ جزءًا من رأسِ ماله . وبِصِفَتِهـا هذه

تكونُ أشبهَ برؤوس المـال التى تُستخدَمُ فى النَّقْلِ أو المبادَلة؛ فلا يَجوز الإفراطُ فى اقتنائها بما يُجاوِزُ الحدَّ الذى تُعيِّنهُ حاجاتُ الإنتاج

يجب على كلِّ شعبٍ ان يَحتفِظَ بنقوده على قدرِ ما يَحتفظُ بمقطوراته[1]

رُؤوس الأموال المعنويةُ — الحِذْقُ والتأدُّبُ

جرَت مُناقشاتٌ مُستفيضةٌ فى هل تُوجدُ رؤوسُ مالٍ معنويةٌ أو لا تُوجدُ

وعندنا أنهُ يَتحتَّم القولُ بوجودها . وفى الحقِّ أن يُقالَ إنَّ الحِذْقَ فى المرءِ رأسُ مال ، لأنَّ بين التأدُّب[2] أو التخرُّجِ[3] وبين رؤوسِ الأموالِ الحِسيَّةِ مُشاكلةً بيِّنةً . ومن وُجوهِ تلكَ المُشاكلةِ :

---

(١) أنظر فيما يلى الفصلَ المعقودَ للنقود — جعلنا لفظة المقطورة اسماً لكلِّ مركبة تجرُّها القاطرة

(٢) طلب العلم والفنِّ المعنويِّ Education

(٣) طلب الصناعة والفنِّ الحسيِّ Apprentissage

١ً — تَشابُهُ السبَب فيما يَحمِلُ الانسانَ على بذلِ مجهوده بِقَصْدِ غَرَض معلوم لا يَتحقَّقُ الاَّ فيما بعدُ

٢ً — الحِرْمان الحاليُّ لأَجل فائدة مُستقبَلَةٍ كما يَقَعُ لمن يَفُوتُ كَسبًا عاجِلاً على رَجاءِ كَسب آجلٍ يَفْضُلُهُ

٣ً — ضرورةُ المعيشة مِن مَذْخوراتٍ سابقةٍ مُدَّةَ التَّخرُّج والتأدُّبِ

٤ً — وَحْدَةُ الغَرَضِ من حيث الرَّغبةُ في تسْهيلِ العمل القابِلِ واستثمارِهِ

٥ً — وَحْدَةُ الضَّرُورة ليأمنَ المتأدِّبُ أو المتخرِّجُ ضَياعَ مجهوداتهِ، وليَضْمَنَ بعدَ عَهْدِ دراستهِ الحصولَ على زِيادةٍ من إنتاج عملهِ، تُعَوِّضُ عليهِ ما هو خيرٌ مِن مجهوداتهِ ونَفَقاتهِ وسائرِ ما قَدَّمهُ خِلالَ تَعلُّمِهِ وتَدَرُّبِهِ

فالمقابلةُ تامَّةٌ بين رأس المال من وجهٍ، وبين التأدُّب والتخرُّج من وجهٍ آخرَ: لائتلاف الأَسبابِ والمقدِّماتِ والنَّتائجِ

وَرُبما لاحَ لنا أنَّ النِّزاعَ في وُجودِ رؤوس أموالٍ

معنويةٍ ، تمادٍ فى التَّحيُّز ؛ على أنهـا حقيقيَّةٌ ، تُوجَدُ فى الشُّعوب كوجودها فى الأَفراد : لأَنَّ الصِّفاتِ التى تُعْرَفُ بها أمةٌ — تَليدةً [١] كانت أو طارِفَةً [٢] — تكون لها منافعُ فيما بين الأُمم من الصِّلات ، كمنافعها بين الأفراد

أَلَيْسَت شُعُرُ [٣] المعاملِ التى اشتهرت بجَودة بضائعها ؛ وكثرةُ العُمَلاءِ الذين استمالتهم إحدى الأُمَمِ الى سِلَعِها ؛ والسُّمعةُ التى اكتَسَبها قومٌ مِن جهـةِ سلامةِ الذَّوق ولُطفِ الشَّكلِ فى مُحدَثاتهم ، أو من جهةِ مهارتهم الصِّناعيَّةِ واستقامتِهم التِّجارِيَّةِ ؟

أَلَيْسَتْ كلّ هذهِ ضُرُوباً مِنْ رأسِ المال ، تُقَوَّمُ بقِيَمٍ فى المقايَضات بين ديارٍ وأُخرى ؟

البدائع الفنِّيَّةُ — رُؤوسُ أموال

جَرَتْ مباحِثُ فى هل الصُّوَرُ اليَدَوِيَّةُ وعامَّةُ البدائع الفنِّيَّةِ رؤوسُ أموالٍ ؟

---

(١) قديمة (٢) جديدة (٣) جَمْعُ شِعارٍ وهو العلامة او الآيَةُ

مِنَ الجهةِ الحِسِّيَّةِ المَحْضَةِ يَجوزُ التَّنازُعُ فى تَعْرِيفها بهذه الصِّفة ؛ ولكن مَنْ يَتدَبَّرُ الامرَ حَقَّ تَدَبُّره ، لا يَجِدُ المنازَعةَ فى ذلك صواباً . فإنَّ تلكَ الرَّوائعَ ، التى دعاها بعضُهم برؤوس الأموال المُنْتِجة ، لَتُعَدُّ من أجَلِّ الارزاق فى البلدِ الذى تكونُ فيهِ ، سواءٌ لبقائها — مع شىءٍ من العنايةِ بها — أطوَلَ ما تبقى عامةُ المصنوعاتِ الأُخَرِ ، أو لأنها تَسُرُّ النَّاظرينَ ولا يُلْحِقُ بها الاستعمالُ عَطَباً ولا تَلَفاً

أمَّا الصُّوَرُ والبدائعُ التى يَتفوَّقُ بها مُجيدُوها فلَها — عدا فوائِدِها — مَزِيَّةُ التَّعليم ، وهى مَزِيَّةٌ تلازِمها طِوالَ الأَحقاب ، وبها يَسْلَمُ الذَّوقُ وتَرْقَى النُّفوسُ ، وعلى أمثلتها تُعْمَلُ أعمالٌ فنيَّةٌ ، صِناعيَّةٌ ، يُتَّجَرُ بها ؛ فهى من هذا القبيل تُنْتِجُ ما لا تُنْتِجهُ إلاَّ رؤوسُ الأَموال

خُذِ المتاحِفَ « كاللُّوفْرِ » وأمثالِهِ فى « مَدْرِيد » أو « لُنْدُن » أو « الفاتِيكان » الخ . تجِدْ أنها مدارسُ عِيانيَّةٌ يُستفادُ منها عِلْمُ الفنونِ وسرُّ إتقانها ، ويَكتَسِبُ المتعلِّمون

المختلفون اليها ، مما تُوحي اليهم، صفاتٍ منتجةً لا تستطيعُ « أمريكا » ولا « أُسترُاليا » — وهما البلَدان الحديثان — إكسابَها لمن فيهما مِن أضرابِ أولئك المتعلّمين

ولولا الرَّوائعُ الفنّيّةُ المدَّخرَةُ في « روما » و« فيورَنْتا[١] » و « درسْد[٢] » و « أمستِرْدام[٣] » و « الهـاى[٤] » و « مُونيخ[٥] » ، لقلَّ عَدَدُ زائريها . فلا مُشاحَّةَ ان تلكَ التُّحَفَ هي رأسُ مال لتلكَ البلاد يُكسِبُها دَخلاً لا يُقدَّرُ؛ ولا سيَّما أنَّ أُلوفاً مِن النَّاس في « إيطاليـا » ، ما زالوا يَرْتَزِقُونَ مِن البدائعِ المخلَّفَةِ عنْ « عصرِ النَّهضةِ[٦] » أو عنِ الأعْصُرِ التي تقدَّمتهُ إما بنَقْلِهم الرُّسومَ أو بتفسيرِهم غوامِضَها

---

(١) Florence بايطاليا (٢) Dresde حاضرة سكس

(٣) Amsterdam حاضرة هولنده (٤) La Haye بهولنده

(٥) Munich بالمانيا (٦) عصر النهضةِ أو الإحياء هو الزمن الذى بُعِثَتْ فيهِ الفنون البديعة بَعثةً كان مبدؤها فى ايطاليـا فى القرن الخامس عشر La Renaissance

ولو قُوبِلَ بين فتىً أمريكيّ أو أُسْتُرَاليّ قد مالَ إلى التَّفنُّن، وبين فتىً إيطالى تفرَّغَ لهُ، لكانَ الفرقُ كبيراً بين حالتَيهما، إذْ أنَّ الأوَّلَ يُكابِدُ مِنْ ضَياعِ الوقتِ وإنفاقِ الغالى والرَّخيص، فى سبيلِ التَّعلُّمِ والتخرُّجِ ما لا يُكابِدُ الثانى

ولَعَلَّ الطُّرَفَ الفنِّيَّةَ تبقى أبدَ الدَّهر إحدى مزايا العالَم القديم على العالَم الجديد. فمِنَ العَبَثِ إذاً أن يُجادِلَ مُجادِلٌ فى كونها رأسَ مال من أنفَسِ ما تقتنيهِ الانسانيةُ

على أنَّ اللَّبيبَ الذى يَنظُرُ مِنْ شَرَفٍ[1] ويَتبيَّنُ المدنيَّةَ كلَّها، يَجِدُها حادِثاً عجيباً آيتهُ لا تَزُولُ ولا تَنقَطِعُ فى تكوينِ رؤوسِ الأموالِ، سواءٌ[2] أكانت حِسِّيةً أم معنويَّةً

---

(١) شَرَفٍ أى عالٍ (٢) سواءٌ أكانت — هذا هو الاستعمال الفصيح كما جاء فى الكتاب العزيز وقد جوَّزوا — سواءٌ كانت — وهو قليل

الفصل السادس

الأسباب التى تؤثر فى تكوين رأس المال — الأطوار الثلاثة التى مرّت بها المجتمعات من جهة وفرة رأس المال وشأنه فيها — الأسباب التى تنقص معها رؤوس الأموال أو تزيد — تأثير الأمن والتربية والأسرة والميراث والأعمال الاختصاصية والقوانين — أيصح تكليف الحكومة أن تقتصد بدلاً من الأفراد ؟

الوجوهُ الثلاثةُ

التى تقلَّبت عليها المجتمعاتُ من جهةِ رأسِ المال

إنّ الفواعلَ الثلاثةَ التى يَصْدُرُ عنها الإنتاجُ ، وهى الطَّبيعةُ ، والعملُ ، ورأسُ المال ، لا يَتَّفِقُ أن تُوجَدَ على نِسبةٍ واحدةٍ فى كلّ مكانٍ وفى كلّ زمانٍ . وكذلكَ الإنسانيَّةُ لم يكن تقدُّمها ورُقيُّها مُتعاصِراً ولا مُتماثِلاً فى جميع أرْجاءِ المعْمُور . وقد اختلفت الشُّعوبُ منذ البَدْءِ اختلافاً بيّناً فى مَقدِرتِها على إحداث رأس المال أى الذّخائرِ والأدواتِ

رأسُ المال بوجه عامّ ، مفقودٌ فى الأقطار الأبكار التى لا يُعْوِزُ الطَّبيعةَ فيها إلاَّ يدُ الإنسان لِتُنْتِجَ أرزاقاً . فإذا جاءها رأسُ المـال بذخائره وأدواته انتعشتْ وعاشتْ . ولولاهُ لما كانَ حظُّ المهاجرين الى البُلْدان أمثال «البلاتا[1]» « وَزِيلَنْدَا[2] » الجديدة ، ومُستعمرات القارّة الأُقيانيَّة ، إلاَّ شظفَ العيش أو الموْتَ جُوعاً . فَشَرْطُ انتفاعهم بأيديهم لتقويم أَوَدِهم ألاَّ يبلُغوا تِلكَ الأَرْجاءَ إلاَّ وقد أُعِدَّت لهم مِيرَةٌ ومأوًى وبذارٌ ومحاريثُ ومَواشٍ . فإن لم يُصيبُوا تِلكَ الضَّرُورِيَّاتِ ، سواءٌ أكانت مما أَوْجَدَهُ السُّكانُ الأَصليُّون ، أم أرْسَلَهُ مُمَوِّلو العالَم القديم ، لَقُوا العُسْرَ والشَّقاءَ وعادوا إلى الهَمَجيةِ الأُولى

ذلك المصيرُ السّيِّئُ هو الذى يَصيرُ اليهِ أُناسٌ مِن الذينَ حَمَلَهم بعضُ المُتقحِّمين[3] المُجازِفين إلى الأَرَضين

---

(١) La Plata بلد فى الجمهوريَّة الفِضيَّة

(٢) La Nouvelle Zélande جزيرتان أقيانيَّتان.

(٣) المتقحّم الرامى بنفسه

المَجْهل [١] فإنّ الطَّبيعةَ فيها قد تكون سَمْحَةً ؛ ولكنّها لا تجُودُ بهباتها إلاّ حيثما يكونُ رأسُ المال مِعْوانًا للنّاس على بَذْلِ مجهوداتهم وعلى انتظارِ نتائجها . وفى المصائبِ الاستعماريّةِ التى حدَثَتْ أخيراً ولا سيما فى « بوربَريتن » بأفيانيا ، ما يؤيّدُ هذا الرأيَ

أجلْ فإنهُ لا بُدَّ لصيانةِ الإنسان مِن النُّزُولِ عن رُتْبةِ المدنيّةِ فى الأقطارِ الجديدةِ ، ان يَصْحَبهُ اليها رأسُ المالِ أو يَسْبقَهُ ؛ وإلاّ اضطُرَّ المهاجرون المستجِدُّون الى المرورِ بالأطْوارِ التى مرّتْ بها المجتمعات الفقيرةُ الهمَجيّةُ مِنْ قبلُ ، وإلى تحمُّلِ ما تحمّلتْ مِن المِحَنِ والفاقات . وأقلُّ هذهِ الكوارث مماّ لا يَستقِلُّ بهِ أُناسٌ — مهما رقّتْ حالُهم [٢] — من أهلِ هذا العصر وحضارته

أمّا إذا نظرنا إلى أُمَمِ العالَم القديم ، وأخصُّها التى تكوّنت على مَهَلٍ ، ولم تندفع فى تقدُّمها كاندفاع المستعمَرات

---

(١) المجهل يستوى فيه المفرد والجمع فيقال ارضٌ مجهل وأرَضون مجهلٌ وهو الأرضُ غيرُ المأهولةِ (٢) اشتدَّ فقرهم

التى تُواليها أُمَّاتُها [١] في هذا العهدِ ، فقد مَرَّتْ بثلاثة أطوارٍ متباينةٍ

الطَّوْرُ الأوَّل : كان مُعْظَمُ التأثيرِ فيهِ للطَّبيعة وكانت هى الفاعِلَ السَّائِدَ فى الإنتاجِ . أمَّا العملُ فقد وُجِدَ إذ ذاكَ حتماً ؛ ولكنَّهُ إنما كانَ لهُ شأنُ المساعِدِ ، ولم يكن قد بلغَ يومئذٍ أشُدَّهُ مِن القُوَّةِ المنظِّمة والقُدْرةِ على التنويع ؛ وأما رأس المال فقد وُجِدَ وكانَ وجودهُ لازِباً ، سوى انهُ كانَ وَليداً لا ينمو إلاَّ ببطاءٍ

ذلك عهد الشُّعوبِ الصيَّادة والشُّعوبِ الرُّعاةِ ، إلى مبادئ أيَّام الزِّراعة : ولا سُلطانَ فيهِ لغير الطَّبيعة بل ولا قِيادةَ لسواها . إذْ أنَّ الانوامَ لم يُليِّنوها ولم يُذَلِّلوها . وقلَّما كانَ فيهم سَبْقُ نظرٍ أو تقديم حَذَرٍ ، فلا تَسليفَ [٢] ولا ذخيرةَ يُحتاطُ بها لامرٍ يَجيء . فهم يَعيشون يوماً بيوم أو عاماً بعام فلا يَحِلُّ الحَصادُ إلاَّ وهم مجهودون . فإذا

---

(١) الأقطار التابعة لها المستعمرات Les Métropoles

(٢) تقديم شيء للاعتياض بهِ أو بأحسن منهُ Avance

نزلت بهم نازلةُ جَفافٍ أو أصابتهم سَنَةٌ[١] ، فَدَحَتْ[٢] بَلْواهم وطغَتْ شِقوتهم فماتوا أُلوفاً

على أنَّ هذهِ النَّوائِبَ الدَّورِيَّةَ وأخصُّها المَجاعةُ ، ما زالت إلى الآن تَنتابُ « أرمينيا » و « آسيا الصُّغرى » بل « الهندَ » و « أفريقيا » فى بعضِ الآناء ؛ ممَّا يدُلّ على أنَّ الانسانَ لم يَبرَحْ فيها تحتَ حكمِ الطَّبيعةِ إلزاماً

فنى مثل هذا الطوْر لم يكن غيرُ رأس المال ، بذخائره وأدواتهِ التى تُنَظِّم الإنتاجَ وتُقَسِّمُ العملَ تَقسيماً صالحاً ، جديراً بتحرير النَّاس من تلك الرِّبقة[٣] وتمليكهم أزِمَّةَ[٤] الطَّبيعة

الطَّوْر الثَّانى : هو الذى تَوافَرَ فيهِ شىءٌ مِن رأسِ المال ، وتَحَسَّنَ العملُ وتَنوَّعَ فأصبحَ وهو الفاعلُ الاوَّلُ فى الإنتاج

ولا شىء يُمَثِّلُهُ لنا كما تُمثِّلهُ القُرُون الوسطى بما كانَ

---

(١) أى جدبٌ (٢) اشتدَّت (٣) الرِّبقةُ النِّيرُ

(٤) أزمّة جمع زِمام وهو اللّجام

فيها مِنْ صِناعةٍ صغيرة ، ومُستصنِعينَ صِغار ، وطوائفِ مُحترفين. وأسْواقٍ ثابتة ضيّقةٍ ، وأسْواقٍ دوريّةٍ فى القَرْيةِ أو الحاضرةِ التى تَرْتبطُ القريةُ بها

ولم تكن التدابيرُ المنتِجةُ الواسعةُ ، ولا المبتَكَراتُ الفُجائيّةُ النّافعةُ ، ولا التّغيُّراتُ المتواليةُ فى الطّرائقِ المسنونةِ والقواعدِ المتّبعةِ ، معروفةً لذلك العهـد . إلاّ ان المجتمعَ كانَ مع ذلك يَتحسّنُ ويَنمو ويَرْقى ، وان كانَ مَظْهَرُه مَظْهَرَ الجمود لِبُطءِ حركتهِ فى تَقدُّمهِ

الطَّوْرُ الثّالثُ : بعدَ هذهِ الحالة أقبلَ الطوْرُ الثّالثُ وفيهِ استفاضَ رأسُ المال ، بذخائره المختلفة وأدواتهِ وآلاتهِ المتنوّعةِ ، ثمّ ازدادَ بسرعة عظيمة وتَبايَنتْ أشكاله بلا حَصْرٍ لتمادى الأُناس المتبصّرين فى الادّخارِ مِن جهةٍ ، ولتتابُعِ المخترَعات والمستكشَفات من جهةٍ أُخرى . فلمّا بَلَغَ إلى هذا الحدّ ، تَقاصرَ ، فاستَجْمَعَ ، وأخذَ بناصيةِ العملِ ، وتَوَلّى إدارةَ العالَمِ بأسْرِه

ولقد كانَ ابتداءُ هذا العهد الجديد فى أُوربا مع ابتداء

المِلاَحة الكبرى، ومع استِبَان السَّفرِ الى الاقطارِ النَّائيةِ في سبيلِ التِّجارَة، قُبَيْل خِتامِ القَرْنِ السَّادسَ عشرَ

إلاَّ انهُ لم يَسِرْ سيرَهُ الحثيثَ ولم يُظْهِر جميعَ مزاياهُ إلاَّ منذ أوائلِ القَرْن الماضي. على أنَّ الصِّناعةَ الصُّغرى، وهي التي يَكونُ الرَّئيسُ فيها عاملاً بيده، ومُشْرِفاً على الجُزْئيَّاتِ التي يُنْتِجُها، لم يَحُقْ بها الزَّوالُ في ذلك العهْدِ؛ غير انهـا فَقَدَتْ كثيراً مِن مَواطِنها وحلَّت الصِّناعةُ الكبرَى محلَّها فيها

هذا الطَّوْرُ هو الذي نحنُ فيهِ الآن

الأسباب التي يَزِيدُ معها جمعُ رأس المال أو يَنْقُصُ

أمَا وقد بَلغَ رأسُ المال من الشَّأنِ أن يُدِيرَ الإنتاجَ في المجتمعات الشَّاهِدَةِ، وان يَزِيدَ فائدةَ العمل، ويُضاعِفَ الأَرْزاقَ، فإنهُ يَتعيَّنُ علينا أن نَبْحَثَ في الأَسبابِ التي عليها مَدَارُ تَوافُرِه، ومنهـا يَتأتَّى أنَّ أقواماً يكونونَ

أحْرَصَ على جمعِهِ من أقوامٍ آخرين

واليكَ القواعِدَ الأَساسيَّةَ التى يَصِحُّ الوقوفُ عندها فى هذا الصَّدَدِ :

١ً — لمَّا كانَ رأسُ المال آخذاً من عاجِلِ الإِنتاجِ أو النَّفَقةِ على ذِمَّةِ نفعٍ آجلٍ ، فلا جَرَمَ انَّ جمعَهُ يَسْهُلُ على المتبصّرين بقَدْرِ ما يَكثُرُ الإِنتاجُ ويَرْبو على حاجتِهم الضرُورِيَّةِ

الشَّعْبُ المكتفى أو الغنيُّ ، أقْدَرُ بالبَداهة على جمعِ المال مِن الشَّعْبِ الفقيرِ ، أو غيرِ المكتفى

مِثالُ ذلك فرنسا ، فى المقابلةِ بينها وبين إيطاليا ؛ أو الشَّعْبُ الفرنسيُّ خِلالَ الشَّطْرِ الثَّانى مِن القَرْنِ التَّاسعَ عشرَ ، فى المقابلةِ بين ما أفْضَى اليهِ ، وبين ما كانَ عليهِ هو نفسُهُ فى الشَّطْرِ الأَوَّلِ من ذلك القَرْن

فكلَّما ازدادَ رأسُ المال ، ازدادَت وسائلُ مُضاعَفَتِهِ . غير أنهُ قد يَحدُثُ أنَّ السَّعَةَ تُخدِّرُ العقلَ وتُفْضِى بالإِنسان إلى الحُمْقِ والسَّفَه ، فهاهنا يَتعيَّنُ على التَّربيةِ

ومَكارِمِ الأَخلاقِ العـامةِ أنْ تَتدارَكَ ذلكَ الفَسادَ بالإِصلاح

٢ — لمَّا كانَ الادِّخار بيعَ عاجلٍ بآجلٍ كما قدَّمنا، تحتَّمَ أن يكونَ مُحتَمِلُ هذا الحِرْمان فى يومهِ، على ثِقةٍ من الحصولِ على رَيْع مُدَّخَرِهِ فى غَدِهِ، فكلُّ ما يُلقى شُبهةً على مُستقبلِ المال، يَنْزِعُ بالنَّفس عن الادِّخارِ. فأمَّا الثَّوْراتُ المباغِتة التى لا يَطُولُ أمَدُها فقلَّما يكونُ لها هذا التأثيرُ. وأمَّا الفِتَنُ التى تَتمادَى والفُوضى التى تَستمرُّ، فهى من العَوادِى[1] التى تَعْدُو[2] النَّاسَ عن التأثيل[3]

أُنظر إلى البلادِ الهمَجيَّة قبلاً، وإلى الدِّيارِ الإسلاميَّة بَعداً، تجدْ أنَّ الرَّجلَ المتبصِّرَ إذا جَمَعَ، أعنى إذا دَفَنَ نُقُوداً أو حُلِيّاً لينتفعَ بها أيّامَ الضيق، فلا يكون ذلك الجمعُ رأسَ مال؛ لأنهُ لا يَستخدِمُ ما جَمَعَهُ فى تأسيسِ

---

(١) العوادى الطوارئُ المانعة (٢) تعدو أى تمنع

(٣) التأثيل الادّخار

مَرافِقَ أو مصانعَ جديدةٍ ؛ بل إنهُ ربما خشيَ ان يتظاهرَ بالجاه فتتَّجهَ اليهِ الأَنظارُ ويَسلبَهُ السّالبونَ كلَّ ما تَصلُ اليهِ أيديهم إمّا حيلةً وإمّا اغتصاباً

فالادّخارُ ورأسُ المال إنما يكثُرَان ما دامت السَّعَةُ ، وما دامَ الأَمن وأخصُّهُ ما كانَ على المِلكيَّةِ

٣ — على قدرِ ما يَكون المستقبلُ مَرْجُوًّا خيرُهُ ، يَكثرُ الادّخارُ ويَنمو رأس المال . لهذا كانت الرَّوابطُ البيتيَّةُ وحُرْمَةُ الميراثِ من الأَحوال الصالحةِ لازدياد رأسِ المال ؛ على أنَّ البيتَ والميراثَ نافِعان للامَّةِ كافةً ، ولا يَعدُو[1] نَفعُهما مَنْ لا صلةَ لهُ مِنْ أهلها بذلكَ البيتِ ولا بذلك الميراثِ . فهُما مُنْتِجان كلَّ الإنتاج : لأَنهما يُنمّيان فى قلبِ الصَّبيِّ وقلبِ الشَّيخِ فضيلةَ التَّبصُّر والتَّعفُّف . أمَّا الأَعزابُ فَهُم بطبعِهم أقلُّ ادِّخاراً من أصحابِ العَيلةِ ، لعدم اهتمامهم بما قد يجيء

وعلى ما تَقدَّمَ بيانهُ ، يَصحّ اعتدادُ الأُسْرَةِ والإرثِ

---

(١) يعدو يتجاوز

سببين من اكبرِ أسبابِ الادّخار : أى النّجاحِ الصّناعيّ فى الأُمَمِ

٤ً — تَوجيهُ التربيـةِ ، إلى التّبصيرِ بالمستقبَلِ مما يُرَغّبُ فى التأثيلِ واستقامةِ الأخلاقِ ؛ فإنّ المُدْمِنَ[١] مثلاً ، لا يَقْتصِدُ ، ولا مجاوَرةَ بين الرّوِيّةِ ، وجُنونِ الخمرِ

٥ً — من المُؤَسّساتِ لأغراض خصيصةٍ أو عميمةٍ ، ما يُسَهّلُ التأثيلَ : كصناديق الادّخار ، وصناديقِ البريدِ ، وصناديق المدارسِ ، وصناديقِ القُعُودِ[٢] وشركات التّعاوُنِ وفى الجملةِ مُعْظَمُ جمعيّاتِ الادّخار أو الإحسانِ . كذلك مما يُرَغّب فى التأثيـلِ ويُعَدّدُ وسائلَهُ ، الشّركاتُ غيرُ المحدودةِ بأسْهُمِها وصُكوكِها المتنوّعةِ ، ومعاهِدُ استثمارِ المنقولاتِ بصنوفهـا ، وقِطَعُ الصكوك أمْثالُ تِلكَ التى قيمتُها ثلاثةُ فرنكات أو أربعةُ فرنكات ، وأسْهُمُ النّصيبِ التى تُصْدِرُها المدُنُ أو بعضُ الشركات الكبرَى ؛ وبوجهٍ

---

(١) المُواظِبُ على شرب الخمر (٢) القَعَدُ والقُعودُ الذين لا ديوان لهم أى لا عمل لهم

شاملٍ ضروبُ السَّفاتج[1] التى منها ما يُرجى معهُ كسب الأرْقام الرَّابحةِ — وهذا ما لا يَتحقَّقُ إلاَّ نادراً — ومنها ما يكون لهُ رَيْعٌ قليلٌ إلاَّ انهُ مضمونٌ

ولقد كانَ العامَّةُ قبلاً لا يَعْرِفُونَ أينَ يَضَعُونَ مُدَّخراتِهم ؛ أمَّا الآن فأرْبابُ الأَعمال يَتهافتونَ عليهم ويَستَبقُونهم . لذلك امتنعت تِلكَ الحيْرَةُ . ولكن بَقِيَ على ذوِى الأَموال حُسْنُ الاختيارِ ، إذ أنَّ من أولئك الذين يَلتمسونَ أموالهم بدعوى استغلالِها ، أُناساً يحتالون لاختلاسِها

٦ً — قد تحُولُ القوانينُ دونَ الادّخار ، وذلك فى حالتيْن :

أولاَهُمَا حينَ تَفرِضُ الضرائبَ فوق النِّسبةِ التى تُجيزُها رؤوسُ الأَموال أو المواردُ ؛ وحين تَفرِضُ الضرائِبَ الوقتيَّةَ غيرَ المعيَّنةِ أو الضرائبَ التى يُوحيها الحِقدُ والحسدُ وتُسَنُّ لإيذاء أهلِ السَّعةِ وأهلِ اليَسارِ . فأمثالُ هذهِ

---

(١) جمع سُفتُجة وهى الورقة المالية

القوانين تثبّطُ العزمَ دونَ الادخار حالاً أو مُستقبلاً ؛ لأنها تُحْدِثُ نقصاً فى رَيْع المال ونقصاً فى الضّمانةِ الواجبةِ لهُ . ومِنْ هذا القبيلِ انَّ الوَزِيعةَ [١] التى تُجْعَلُ على المواريثِ ، إذا بولغَ فى مقدارها فجاوَزَ الدَّخلَ السنوىَّ المتأتّى عن رأسِ المال ، أثَّرَت ذلك التأثيرَ السيِّئ

أمَّا الحالة الثانيةُ التى تُوهِنُ بها القوانينُ قوَّةَ التأثيل فبيانُها فيما يلى :

لمَّا كانَ الادّخارُ بيعَ عاجلٍ بآجلٍ كما قدَّمنا . وَجَبَ أن تَرْسَخَ فى أذْهانِ الناسِ على اختلافِ طبقاتهم عقيدةُ أنَّ ذلك التَّجنيبَ دونَ سواه هو الذى يَجْلِبُ لهم صنوفَ الفوائدِ التى يَستمتِعُونَ بهـا ، فإذا سُنَّت قوانينُ مِنْ مُقتضاهـا تكفيلُ الحكومةِ أو بَلديَّةِ القَرْيةِ بجميع سُفهاء القُطرِ أو البلدةِ ، قُتِلَتْ عزيمةُ التَّبصرِ عند غيرِ واحدٍ من النَّاسِ . فإذا وُسِّعَ نِطاقُ الإعانة العامَّة فكانَ للفقير ، غيرَ مُدافَع ، أن يُصيبَ منها حظّاً يَتبلَّغُ [٢] بهِ

---

(١) الوَزِيعة خاصة بالمواريث كالضريبة (٢) يقتات بهِ

أو يَجدَ معهُ شيئاً من صلاحِ الحالِ، وإذا تبارَى المحسِنون في العطاءِ ولم يتحرَّوْا وَضْعَهُ في مواضعهِ، فمفعولُ كلِّ ذلك إضعافُ النَّشاطِ العقليِّ والنزوعُ بالنُّفوس عن الادّخارِ

ومثلُ هـذا المفعولِ واقعٌ لا محالةَ إذا نَفَذَ ما هو منْويٌّ مِنَ القوانينِ الغرَّارَةِ[1] : مثلِ الذى يُراد سنُّهُ للقعَدَةِ من العُمَّال ويُقْصَدُ بهِ ان يُمَدَّ العاملُ، مِن غيرِ مُقابلٍ يُقَدِّمهُ، إمداداً يَقْضِى معـهُ شيخوختَهُ فى رَخاءٍ وكَرامةٍ؛ فلو وَعَدْتَ انساناً بأن تُنِيلَهُ عفواً ما كان يرجوه من نتيجةِ كَدّه وكَدْحهِ، فانْ يَكِدَّ بعدها وانْ يَكْدَحَ إذاً فَسخاءُ الحكومة على غيرِ المستَحِقّينَ للإحسان يَقْتُلُ الادّخارَ بإزالةِ أهمِّ الأسبابِ الدّاعيةِ اليهِ، وبالتّالى يَقْتُلُ رأسَ المالِ الذى أصبحَ الآن صاحبَ الشأنِ الأكبرِ فى الفلاحِ الاجتماعيِّ

نَستطردُ مما سبَق إلى أنْ نتساءلَ : هلْ تَستطيعُ الحكومة أن تقُومَ مقامَ الأفرادِ فى الادّخارِ ؟

---

(١) الخدّاعة

قد يتَّفِقُ لبعض الحكومات ان تَدَّخرَ ، غير أنَّ اكثرَهُنَّ — أيَّةً كانت نظاماتُهنَّ — أميلُ إلى الإنفاقِ جُزافاً منهنَّ إلى الادّخارِ . وإنما الحكومة تَدَّخرُ، حيث تَستخدمُ أموالَ الضرائب دونَ سواها مِن اقتراضٍ ونحوه ، فى تمهيدِ الطُّرُقِ وتشييدِ المدارس وإقامةِ المرافقِ العامَّةِ ، فإذا أرادت الادّخارَ على هذهِ الصُّورةِ فقد تعيَّنَ عليها أَلاَّ تقترضَ كما أشرنا ، وان تكون على بَصيرةٍ مما تُنفِقُ فيهِ الأموالَ

وهذان الشرطان قلَّما يتوافران فى حياةِ الحكوماتِ . على أنَّ لذلك سبباً شاملاً : وهو ان كلَّ حكومة تابعةٌ لِمَنازع[1] شعبها ؛ والسَّوادُ الأَعْظَمُ من كلِّ شعبٍ غيرُ مُولَعٍ فِطرةً بالادّخار أمَّا الذينَ طابَ عُنْصُرُهم وكمل تبصُّرُهم ، فقَمَعُوا شَهواتِهم ، ورَسَمُوا حدًّا لحاجاتِهم فأولئك دونَ غيرِهم ، هم الذينَ يَرْغَبُونَ فى الادّخارِ ويَفْعلونَ بقوَّة إرادتهم . وليسوا إلاَّ بعضاً من كلٍّ ، فى

(١) المنازع الأغراض والميول

السَّوادِ الذى يَضطرُّ أولياءُ الأَمر إلى مجاراتهِ على متُقلّبِ أهوائهِ ومتُباينِ آرائهِ . دَعْ أنَّ الحكومات عُرْضَةٌ فى كلّ يوم لأُلوفٍ مِن طُلاَّبِ الخدمةِ وأرْبابِ الأَمانيّ الكثيرةِ الكُلْفَةِ الذينَ يَشْغَلونها فوْقَ شواغلِها . فَمِنَ العَسير عليها أنْ تَعْزِمَ أو أن تَقْدِرَ على الادّخارِ من دَخْلِها على النِّسبةِ التى يكونُ عليها ادّخارُ المتبصّرين الحُصَفَاءِ[1] من الأُمة

غايةُ ما تُسألُ عنهُ الحكومات ألاَّ تُسرِفَ : وهذا أيضاً غيرُ ميسور لها ، فلا محلَّ لتكليفها الادّخارَ ومتُابعتَهُ برَوِيَّةٍ ؛ فالعُمْدَةُ فى تنميةِ رأسِ المالِ عند كلّ شَعْبٍ ، انما هى على أهْلِ النَّشاطِ والتَّبصرِ من أفرادهِ

(١) الحصفاء العقلاء